تشابه أسماء

.. مرت الأيام سريعاً وأنا في دمشق، دراسة وكدٌّ وجهد، وأحياناً.. تعب وإحباط ويأس، لكن نظرة مني لجبل قاسيون بكل شموخه.. كانت تردُّ إلي همتي وتجدد طموحي، دائماً أستمدُّ منه الطاقة والصبر.. فهو صابر.. مع طول الأيام والسنين صابر.. يتأمَّل البشر.. بأخطائهم.. وهفواتهم.. وعثراتهم، يتأملهم بصمت.. ويصبر، وكأن الله تعالى قد خلقه ليمتص أخطاء البشر ويبقى ثابتاً رمزاً للشموخ وتمثالاً عن الطموح.. منبعاً للطاقة، كلما نفدت طاقتي نظرت إليه فنفث فيها شيئاً من ألقه ثم أعادها إليَّ مثله.. مشعَّة متلألئة..! مع دوام النظر إليه.

لكن شيئاً من ذلك لا يفرغ في داخلي شعور الرهبة،خاصة مع غياب الشمس وراء الأفق، وإضاءة الأنوار للمآذن على سفحه، كيف تستطيع تلك المآذن بكل أناقتها أن تخترق السماء بشفافية ولطف..؟

ليس من السهل أن يكون المرء راقياً.. شفافاً.. ومشعًّاً.. مثل المئذنة..!

obeikandl.com

عندما توفي أبي كان لكل شيء زاويتان مزدوجتان، معنيان مبهمان، ظاهر وباطن، قلة أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا مثل المئذنة، صوت الإيمان فيها ذاته يصدح من جميع الجهات، هكذا اعتاد أبي.. الرجل هنا لا يرى أصلاً هذه الازدواجية، ويستغرب ممن ينعته بها، كنت أغيب عن أبي وأعود إليه فأجده هو.. هو.. لم يتغير، يزيدني العلم نوراً، وتزيدني الحياة مرونة.. ويبقى هو.. هو..لا يتغير..!

كان يقول لي : " يا بنتي.. من يغيِّر أصله فلا أصل له " كان يؤلمني أن الأصل في مفهومه هو الأعراف والتقاليد بصحيحها وسقيمها، لأن الخبرات القديمة في نظرهم هي التي تراكمت وصنعتها فلا نأتي نحن ونقيِّمها بكلام نظري فنفصل بين الصحيح والسقيم، توفي وأنا عندي غصَّة أن أشرح له وجهة نظري، لكن الأصول عنده أن الولد لا يخطِّئ أباه..! مهما درس الولد وتعلَّم فلن يعرف أكثر من والديه اللذين كبَّراه..!

أتساءل بعمق.. عندما تكون القضية قضية مفاهيم، فذنب من يكون..؟ وعلى أيِّ أساس يُحاكم طرفا القضية..؟ وفقاً لمن سيكون مفهوم العدالة..؟ وهل النية الصالحة تصلح العمل الفاسد..؟ تساؤلات كثيرة كهذه تجرُّني إلى إيمان أعمق بشرعي السماوي الذي

يفوق مدارك البشر، فيحيطني علم اللّه تعالى بكل احتواء وحنان ليرمم قصور رؤاي للحقائق..!

لم أستطع السفر ومتابعة دراستي في الماجستير إلا بعد وفاة أبي، ليته كان حياً ليحضر طرحي لرسالة الماجستير قريباً ويفخر بي، هذا إن كنت حقاً في نظره رمزاً للفخر..! رحمة اللّه عليه، ليته تعرَّف الدكتور (رامز العلي).. إنه مثال عن الرقي والشفافية، مثال عن الالتزام والتحضّر، يصغر أبي بعقد تقريباً.. لكن كلماته تنضح دائماً باحترام المرأة وتقدير رأي المرأة، كتبه تملأ السوق، وتملأ فكري، وكان أمتع ما في تحضيري للرسالة هو تواصلي معه.. كم جاد عليّ بالنصائح والوصايا، لطالما تساءلت.. أيّ عقل في رأس هذا الرجل..؟ وأي قلب تكتنزه ضلوعه..؟ مع أن أمي تقول لي باستمرار : لا تقفي يا وفاء عند الأشخاص، أسقطي التماثيل.

كنت أهاتفه باستمرار، وأرسل إليه عبر البريد الإلكتروني كل ما يجول بذهني من أفكار لتدوينها في رسالتي، والتي جعلت عنوانها : المرأة ما بين الأمس واليوم، فمحور كتاباته كلها تصبّ في قالب رسالتي، لذا كان يشير عليّ بالمراجع التي تغني محاوري، كان يدفعني دائماً إلى الأمام ويرفع من معنوياتي ويرحّب

برسائلي ويمدح كثيراً طرحي المتجدد للقضايا.. كنت أحار في طريقة شكره لكنه يكتفي بأن يقول لي كلمته المعهودة بكل ابتسامة.. " نحن في خدمة العلم وتصحيح الفكر..! " جعلتها شعاري..!!

كان عليّ أن أزور خالي في حي (المهاجرين) قبل عودتي إلى حلب، لقد مضى على سكنه في منزله الجديد شهران ولم أزره بعد، الجميل في تلك الزيارة أن كاتبي المفضّل (رامز العلي) يقطن معه في البناء نفسه، وقد بدأا معاً صحبة لطيفة..! دخلت إلى محل للهدايا وأنا أتأمل ماذا أشتري لمنزل خالي الجديد..؟ هل أشتري الورود ؟.. لكن الزمن يغيُّرها.. وأنا أريد الهدية صامدة مثل قاسيون، هل أشتري لوحة فنية.. ؟ الأذواق في هذه الفنون تختلف..! هل أشتري قطعة فنية متميزة..؟ ما أجمل الفن وهو يتمازج مع مناسباتنا الاجتماعية، والتي لولاها ما وجدنا وقتاً كافياً للاستمتاع بتأمّلها..! وسط حيرتي لمع في بصري شيء في الزاوية.. اقتربت منه، كان مسجداً مصغّراً مصنّعاً من قطع فسيفسائية ناعمة، فيه إتقان وإبداع.. مئذنته لطيفة.. تضيء الأنوار داخلها بحركة تناغي القلب وتداعبه.. حتماً سأشتريه..!

خرجت سعيدة وبين يديّ صندوق الهدية وكأنّه خرج للتوّ من قلبي، وصلت إلى البناء وأنا أتخيّل أبواب

السماء قد فتحت لي لأدعو ما شئت، دعوت أن ألتقي بالدكتور (رامز العلي) في أثناء صعودي إلى منزل خالي، فقد مضى وقت طويل لم أره فيه، ولم أطلعه على الصيغة النهائية لرسالتي.. أحب أن أفاجئه..!.. ارتد خيالي خاسئاً وهو حسير، فقد وصلت إلى منزل خالي ولم أرَ حتى لافتة اسمه بجانب منزله.

كان ترحيب خالي وزوجته بي حاراً، وكان منزلهما جميلاً يوحي بانسجام في الذوق، قاما بفتح الهدية ما بين الطرفة والسرور، سرني إعجابهما بها، سألني خالي : ما الذي شدّك إليها..؟

ابتسمت وأنا أجيب : المئذنة..!!

.. لأنني مولعة باختيارات خالي من الكتب، فقد سارعت قبل شرب القهوة إلى الوقوف عند مكتبته للاطّلاع على جديدها.. برق في عينيّ كتاب يحمل عنوان رسالتي.. ثارت الغيرة في قلبي، مع أن عناوين كهذه تتكرر.. يبدو أنها غلطتي، يجب أن أغيِّر عنوان الرسالة، وأختار لها عنواناً مميزاً أكثر.. ما كادت الفكرة تنتهي في ذهني وأنا أحمل الكتاب حتى وقع بصري على اسم الكاتب في ذات اللحظة التي يتحدث بها خالي :

- إنه إصدار جديد لجارنا الكاتب رامز العلي، أمس التقى بي في البناء وكانت رزمة الكتب في يده قد

أحضرها للتوِّ من دار النشر، وقال لي : أنت أول شخص أهديه هذا الكتاب.

تساقطت دقات قلبي ما بين قدميَّ، كان خالي يتحدَّث عن الكتاب وكلماته تخترق أذنيّ فتتشظى بين عقلي وقلبي، أصابني الوجوم لوقت غير قليل.. تذكَّرت ساعات البحث الطويلة.. تذكرت سهر الليالي.. تذكَّرت مشاويري المترددة ما بين المكتبات في تنقيب عن فكرة صغيرة.. وعينيّ اللتين أضناهما الحاسوب والشابكة، كل ذلك مضمَّخ بتشجيعه اللا متناهي، كان خالي يتحدَّث :

- على فكرة.. لا أدري لمَ أشعر أن طريقة تعامله مع زوجته وأولاده لا تتوافق مع أفكاره وكتاباته، أتعلمين.. أية شهرة لأي رجل لا تعادل لحظة صدق يقفها المشهور أمام نفسه، أشعر أن ثقتي بكتاباته بدأت تضعف بعدما اقتربت منه..

ثم نظر إليَّ باستغراب وهو يسألني : ما بك يا وفاء واجمة..؟ كأنني لا أتحدث عن كاتبك المفضَّل..؟

.. برق الدمع في عيني، تأمَّلت المئذنة طويلاً، تمنيت لو كان تشابه أسماء..!